

فاتح المدرس بوابة الفن التشكيلي السوري إلى العالمية

فيلسوف الألوان الذي كان يخاف من الأصفر والأخضر ويتعامل معهما بحذر

يعتبر الفنان التشكيلي السوري الراحل فاتح المدرس من أهم الشخصيات الثقافية على المستويين السوري والعربي، ليس فقط على صعيد التشكيل، الذي قدم فيه بصمة مازال تأثيرها ماثلاً إلى اليوم، بل على أصعدة ثقافية متعددة ومتنوعة كالأدب والموسيقى وفلسفة اللون والضوء، ومساهمة في الدفع بالمشهد الثقافي بشكل متكامل نحو التجدد من ناحية والتجذر في بيئته من ناحية أخرى.

د. هشام - عرف الفن التشكيلي السوري المعاصر العالمية من بوابة اسمها فاتح المدرس، فهذا الفنان كان العلامة السورية الأكثر حضوراً في عالم الفن التشكيلي، بانبا لنفسه ولغيره مدرسة فنية جمعت عملية الغرب وروحانية الشرق، ثم انغمست في أكثر تفاصيل البيئة والحياة السورية خصوصية.

المدرس الذي مرت ذكرى وفاته الـ22 قبل أيام، وصف بأنه فنان متعدد الثقافات يعمل في سياق السريالية العالمية بوصفها حركة فكرية تجاوزت الغرب والشرق، ليكون نتاجه حصيلة تجربة حياتية طويلة وغنية وخالصة دراسة للتفكير التجريدي والمفاهيمي والفلسفي وقراءته للواقع الاجتماعي السياسي فضلاً عن تأثره بالبيئة والحضارة السورية ومكوناتها الغزيرة وشديدة التنوع.

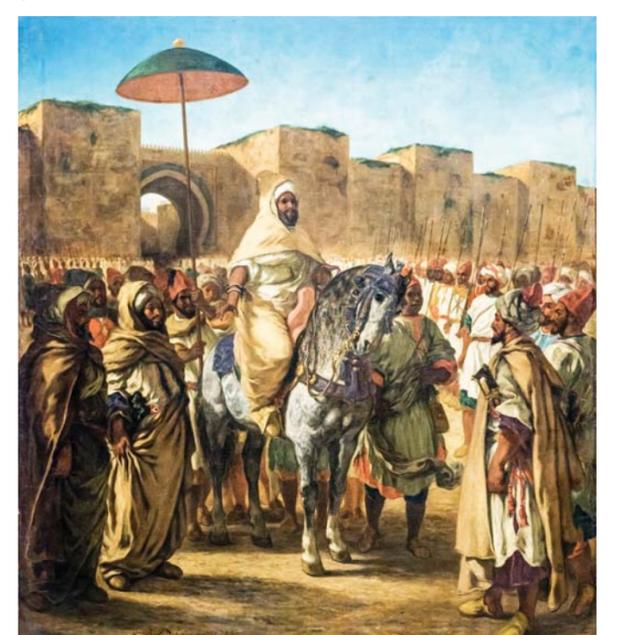
صديق سارتر

وبعد أن نال المدرس شهادة التعليم الثانوي سافر إلى بيروت ليدرس في الجامعة الأميركية اللغة الإنجليزية وبعد أن عاد إلى حلب إثر انتهاء دراسته عمل مدرساً وتوسع بطوره موهبته الفنية ويوسع مداركه فيها، فشارك خلال عام 1947 في المعرض الأول للفنانين التشكيليين السوريين في مدرسة التجهيز بدمشق ومعرض الفنانين العرب في بيت مري بلبنان لينظم أول معرض فردي له سنة 1950 في نادي اللواء بحلب. وكان عام 1952 الأهم في تجربة المدرس وفقاً للناقد التشكيلي سعد القاسم فيه شارك بمعرض أميركي حيث نال جائزة على لوحته "راقصة العصر" ونالت لوحته الشهيرة "كفر جنة" جائزة المعرض الثالث للفنون التشكيلية في المتحف الوطني بدمشق والتي اعتبرت فاتحة اتجاهات الحداثة في الفن التشكيلي السوري.

وفي عام 1954 سافر المدرس إلى روما حيث درس لمدة ست سنوات في أكاديمية الفنون الجميلة، وكان أستاذه فرانكو جنتليني، ويعتبر أعظم فناني بلاده في زمانه. قد طلب منه ألا ينساق باتجاه الغرب وأن يبقى في حلمه الشرقي، ودعا له لأن يكرس شخصيته الخاصة. وبعد رجوعه إلى سوريا سنة 1960

وافتتح أخيراً بمتحف محمد السادس للفن الحديث والمعاصر بالرباط معرض "دولاكروا، ذكريات رحلة إلى المغرب"، وهو الأول من نوعه في القارة الأفريقية والعالم العربي، ويؤرخ المعرض الذي يستمر إلى غاية 9 من أكتوبر 2021، للرحلة التي

قام بها أوجين دولاكروا إلى المغرب سنة 1832، وذلك من خلال توليفة مختارة من اللوحات والرسومات والألوان المائية والملابس والأسلحة والموسيقى والآلات التي أحضرها من رحلته ورافقتها طوال حياته المهنية كفنان. ومثل العديد من الفنانين من جيله، كان دولاكروا يحلم منذ فترة طويلة بمشرق ذي معالم جغرافية غير محددة، كما أن قصائد بايرون والقطع والمنسوجات، التي جلبها أصدقاؤه من أسفارهم، واللوحات والنقوش التي تمثل أزياء وعوالم شرقية، أغنت خياله قبل القيام برحلة حياته إلى المغرب. وبعد عودته إلى فرنسا وحتى وفاته، لم يفق دولاكروا عن تضمين كل التفاصيل التي تآثر بها خلال الرحلة في أعماله الفنية.



أعمال لفتت الانتباه إلى عوالم شمال أفريقيا



لوحات المدرس شاهد على حكايات الأرض والإنسان

وطافت لوحات المدرس في 20 معرضاً فردياً في سوريا والعالم فتنقلت بين أميركا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ولبنان والإسارات كما واظب على المشاركة في جميع المعارض الجماعية داخل البلاد وخارجها ولا سيما التي أقيمت بالتعريف بالفن السوري. كان المدرس يقول عن نفسه بلست تعبيرياً في اتجاهاتي التشكيلية ولست سرياليا ولست تجريدياً، بكل بساطة أنا رسام سوري عربي حديث أرفض الأخذ بالمفاهيم المستوردة أو المسبقة الصنع أنا شاهد على جمال الأرض والإنسان كما أنا شاهد على أحزان عصري.

الجانب الآخر من إبداع المدرس تجلّى في الأدب فترك لنا ديوانين شعريين مشتركين "القدر الشرقي على شاطئ الغرب" مع شريف خزندار و"الزمن السبي" مع حسين راجي ومجموعة قصصية بعنوان "عود النعنع" وانتجت له المؤسسة العامة للسينما مجموعة من قصصه في فيلم واحد حمل اسم "العار" سنة 1974 عن معاناة الريف السوري.

ولوحات ذات المضمون السياسي، وكان يميل إلى الذهبي متأثراً باستخدامه في الفنون القديمة كالبيزنطية ويستخدمه لـ"قتل" بعض الألوان في اللوحة، وكان يرى أن الأبيض هو السيد في اللوحة، أما باقي الألوان فضيوف مؤقتون، كما استخدم الأزرق بعنف وأعطاه طابعاً حياً ومقاتلاً بصورة أكثر ذكاءً ونبلاً.

وعبر دراسته العميقة لأعمال كبار الفنانين ولا سيما الحداثيين منهم توصل إلى أن اللوحة نتاج انفعالات محددة ومكان وزمان معينين، لذلك وجد نفسه غير قادر على تقليد نفسه ورسم لوحة تشبه سابقتها.

وعبر مسيرة حياته نال المدرس الكثير من الجوائز والأوسمة محلياً وخارجياً من وسام الاستحقاق السوري الذي منحه له بعد وفاته سنة 2005 وجائزة الدولة للفنون سنة 1985 والجائزة الأولى من أكاديمية الفنون الجميلة بروما والميدالية الذهبية لمجلس الشيوخ الإيطالي وميداليات عديدة فنية عربية وأجنبية.

من الفنانين الشباب وطلاب كلية الفنون وكان تأثيره عليهم كبيراً، كما يوضح القاسم وساهم في دفعهم نحو إطلاق حريتهم الإبداعية والبحث في التراث المحلي والموروث الإبداعي وكثيراً ما كان يساهم بالحديث عن تجاربهم في الندوات التي تقام بمناسبة معارضهم.

بنى المدرس علاقات شديدة الصلة مع مثقفين وأدباء سوريين وعرب كبار أمثال عبدالرحمن منيف وأدونيس ومحمد ملص ومما يسجل له أنه قام خلال حياته بإهداء لوحاته إلى أصدقائه بل إنه أكثر الفنانين إطلاقاً إهداءً للوحاته.

أثر المحن التي طالت حياة المدرس ظهرت جلياً في لوحاته فهو فقد طفلين أنجبهما من زوجته الأولى الإيطالية جراء حادثين منفصلين، ورغم قوله إنه تعامل مع هاتين المحنتين بصبر وشجاعة إلا أنه بوسعنا رؤية أطباء أطفاله بأعماله في رمزية يكسوها الحزن والأسى. وفي عالم الألوان كان المدرس يخاف من الأصفر والأخضر ويتعامل معها بحذر بينما كان يميل إلى الأحمر في

كان المدرس من أوائل الفنانين الذين تولوا التدريس في كلية الفنون الجميلة المفتوحة حديثاً، ولكن شغف الفن ودراسته دفعا به إلى أن يسافر ثانية بعد تسعة أعوام إلى باريس، حيث حصل على درجة الدكتوراه من أكاديمية الفنون الجميلة.

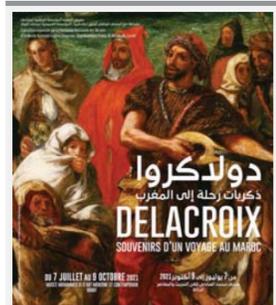
وخلال سنوات دراسته وطد المدرس صداقة عميقة مع المفكر الفرنسي جان بول سارتر الذي اقتنى له أربع لوحات وترجم مقطوعات شعرية لفاتح من الإيطالية إلى الفرنسية، ولكن هذه الصداقة توقفت بعد أن جنح سارتر في سنواته الأخيرة إلى دعم إسرائيل.

فنان شامل

المدرس هو أحد الفنانين العرب القلائل الذين تباع لوحاتهم في مزادات الفن العالمية بأسعار عالية، وقد كان أحد الأعضاء المؤسسين لنقابة الفنون الجميلة في سوريا سنة 1967 ثم تولى رئاستها 11 سنة، فتخلق حوله عدد كبير

بعد مئتي عام عودة إلى الذكريات المغربية للرسام الفرنسي دولاكروا

المجموعات المتوفرة في المتاحف المغربية. وأعقب حفل الافتتاح الذي أقيم بحضور العديد من أعضاء السلك الدبلوماسي المعتمدين بالرباط وفاعلين في مجالات الثقافة والإعلام من المغرب وفرنسا استكشاف مختلف الأشياء والأعمال الفنية المعروضة بهذه المناسبة رفقة مندوبي المعرض.



المعرض يكشف العلاقة الوجدانية التي ربطت الرسام بالمغرب، باعتباره أول سفير للألوان والتقاليد المغربية

وانسجاماً مع إرادة المغرب في الحفاظ على صلة قوية بين المغاربة المقيمين في الخارج وبلدهم الأصلي، تم إقرار تخفيض بنسبة 50 في المئة لولوج المعرض عند تقديم جواز السفر.

لدولاكروا تأثير على العديد من الفنانين الذين ساروا على خطاه، بمن فيهم أوديلون ريدون وبنجامين كونستانت والفريد ديوندك وهنري رينو وجورج كلارين في القرن العشرين، ولوسيان ليفي وتيوفيل جين ديلاي وأيضاً شارل كاموان.

كما "سافر بنجامين كونستانت إلى المغرب على خطى دولاكروا، كما افتتن الفنانون بشكل خاص بمشاهد الشوارع والمناظر الطبيعية لطنجة".

وأشار عبدالعزیز الإدريسي مدير متحف محمد السادس للفن الحديث والمعاصر والمندوب المشارك للمعرض إلى أن دولاكروا "يعود له الفضل في تغيير توجه الفنانين من إيطاليا والشرق إلى أفريقيا الشمالية ونحو المغرب على وجه الخصوص".

وسجل أن "هذا العبور نحو أفريقيا الشمالية أعاد بكل بساطة توجيه اهتمام الفنانين الأوروبيين"، مشيراً إلى أن دولاكروا قد شكل مجموعة ذات بعد تراثي "جد مثيرة للاهتمام". وتتميز هذه المجموعة الإثنوغرافية والتراثية التي يعود تاريخها إلى بداية القرن الثامن عشر، وفقاً للإدريسي، بخصوصية كونها "مجموعة تؤرخ لما قبل هذا السفر وما بعده".

وأضاف الإدريسي أن "هذه المجموعة سبقت التأثيرات المتأخرة التي وصلت إلى المغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، مبرزاً أنها "مناخية عنصر يمكن أن يتشكل مرجحاً لإجراء دراسات وأبحاث حول

المغربية للمتاحف أن هذا المعرض سيسمح باكتشاف دولاكروا "الرسام الذي جلب الألوان وأحدث ثورة في المشهد الفني في عصره"، والعودة إلى رحلته التي قام بها إلى المغرب، والتي تشكل مفتاحاً لقراءة فترة معينة من التاريخ المغربي وفهمها، خاصة على الصعيدين الدبلوماسي والفني.

وأبرز قطبي أهمية هذا المعرض الذي يعتبر "مصدر فخر" للمغرب. كما نوهت مديرة المتحف الوطني أوجين دولاكروا والمندوب المشاركة للمعرض كلير بيسيد بـ"نظرة الخبراء" التي تتمز بها أعمال دولاكروا، مسلطة الضوء على الأثر الذي كان للمغرب على المسار الفني لهذا الفنان الذي ميز عصره.

وقالت إن "أوجين دولاكروا سيمثل المغرب لأكثر من 30 عاماً من خلال لوحاته التي رسمها في ورشته بباريس"، مشيرة إلى أن الرسام استند "إلى رسوماته وأشباهه وذاكرته وذكرياته" لجعل رحلته إلى المغرب تنضج بالحياة. وأشارت إلى أن "دولاكروا هو أول فنان يأتي إلى المغرب"، مبرزة أنه تمكن من خلال لوحاته التي تعكس مشاهد من المغرب من خلق "عالم تصويري متماسك بجودة في الألوان وحدانية في اللوحة، وهو ما كان له تأثير على فنانين مثل ماتيس".

وأضافت أنه إلى جانب الأهمية التي اكتسبها المغرب في أعماله كان

المدرس هو أحد الفنانين العرب القلائل الذين تباع لوحاتهم في مزادات الفن العالمية بأسعار عالية، وقد كان أحد الأعضاء المؤسسين لنقابة الفنون الجميلة في سوريا سنة 1967 ثم تولى رئاستها 11 سنة، فتخلق حوله عدد كبير

وافتتح أخيراً بمتحف محمد السادس للفن الحديث والمعاصر بالرباط معرض "دولاكروا، ذكريات رحلة إلى المغرب"، وهو الأول من نوعه في القارة الأفريقية والعالم العربي، ويؤرخ المعرض الذي يستمر إلى غاية 9 من أكتوبر 2021، للرحلة التي

قام بها أوجين دولاكروا إلى المغرب سنة 1832، وذلك من خلال توليفة مختارة من اللوحات والرسومات والألوان المائية والملابس والأسلحة والموسيقى والآلات التي أحضرها من رحلته ورافقتها طوال حياته المهنية كفنان. ومثل العديد من الفنانين من جيله، كان دولاكروا يحلم منذ فترة طويلة بمشرق ذي معالم جغرافية غير محددة، كما أن قصائد بايرون والقطع والمنسوجات، التي جلبها أصدقاؤه من أسفارهم، واللوحات والنقوش التي تمثل أزياء وعوالم شرقية، أغنت خياله قبل القيام برحلة حياته إلى المغرب. وبعد عودته إلى فرنسا وحتى وفاته، لم يفق دولاكروا عن تضمين كل التفاصيل التي تآثر بها خلال الرحلة في أعماله الفنية.

وفي كلمة بالمناسبة أكد مهدي قطبي رئيس المؤسسة الوطنية